ابن سينا والمبادىء العامة

الدكتور جعفر آل ياسين
مدرس في قسم الفلسفة

تمهيـــد

اثار الفكر الاغريقي لدى الفلاسفة المسلمين جوانب كثيرة من البحث ارتبط قسم منها بالناحية النظرية البحت ، وارتبط القسم الآخر بالناحية العملية للحياة في جانبيها المثالي والواقعي على السواء • وكان للجانب الاول اثره الواضح عند فيلسوف مسلم هو ابن سينا[1] ، تسلم التراث المترجم وحاول على ضوء مقتضيات الظروف ان يقدم موسوعة فلسفية شاملة سايرفيها المدرسة الارسطوطالية مسـايرة الناقد البصير ، فأخذ بقسم كبير من آرائها ، وناقش قسما آخر مناقشة حرة نافذة • وتبلورت تلك المحاولة في كتاب اسماه « الشفاء »[2] احتذى في ترتيبه الترتيب الذي تجري عليـه

---

(١) أبو علي بن سينا ولد حوالي سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) بالقرب من بخارى في قرية صغيرة تدعى أفشنة ، وتوفى عام ٤٢٨هـ (١٠٣٦م) •

(٢) « الشفاء » موسوعة فلسفية شاملة تقع في عدة مجلدات • ينقسم الى اربع « جمل » الجملة الاولى تبحث في المنطق والثانية في العلم الطبيعي والثالثة في العلم الرياضي والرابعة في العلم الالهي ، وتنقسم « الجملة » الى « فنون » والفن الى « مقالات » والمقالة الى « فصول » • ولسنا ندري هل ان هذا التقسيم بكاملة من أعمال ابن سينا نفسه ام انه من عمل النساخ ، ولكن مما لاشك لدينا ان تقسيمين من هذه التقسيمات هي سينوية الاصل حيث ان الشيخ الرئيس يشير اليهما في تضاعيف كتابه المذكور ، واعنى بهما لفظة (فن) و (فصل) • وجدير بالذكر ان لفظة (فن) التي ترد في كتابي « الشفاء » و « القانون في الطب » يدرجها الغربيون تحت ابتداعية ابن سينا وانه المبتكر لهذه اللفظة في استعمالها الاصطلاحي لا اللغوي طبعا • يؤيد هذا الادعاء الشاعر الانكليزي الشهير چوسر Chaucer في عبارة يستعمل فيها ذات اللفظة العربية مرجعا اياها الى ابن سينا نفسه •

انظر :
New English Dictionary, Oxford, 1901, Vol. I: p. 153.

فلسفة المشائين[٣] متجنبا الاطالة والتكرار .

ويبدو لنا من المقارنة بين النص الارسطوطالي[٤] وبين النص السينوي ان الاخير اتخذ من منهجية المعلم الاول سبيلا للتنظيم ولكن خالفه في أصول البحث والعرض والتخريج . ومن هنا فليس « الشفاء » في حد ذاته ـ وطبيعاته على الاخص ـ شرحا أو تعليقا على الفكر الارسطي بله فيه من الاصالة الشيء الكثير مما لا يمكن سلكه في عداد الرسائل الشارحة مطلقا . اما مسألة اطلاع ابن سينا بنفسه على النص العربي المترجم من « طبيعيات » المعلم الاول فأمر لا يدعو للريبة أو الشك لان النصوص التأريخية تؤكد لنا جازمة ترجمة النص وشروحه الى العربية قبل ولادة الشيخ الرئيس بعشرات السنين[٥] .. وليس من الشك في ان الدعاوة التي تعتمد القول بان السينوية هي ارسطوطالية في مسوح مسلمة دعاوة تفتقر الى كثير من الدليل والحجة ، لان أصالة الفكر ـ أي فكر كان ـ لا تعتمد على ابتداعية خالصة من التأثر بسابقتها ؛ فليس الابداع خلق أفكار من عدم لا أصل له ، بل الابداع ان تضيف الى ما تقدم جديدا يستند في بنائه وقيامه على أصول سابقة ولاحقة . وبهذا فليس الانتاج ـ بصوره المتعددة ـ ابداعا ، لان الاول يقوم على (الكمية) في الحصر ، والثاني ينهض على (الكيفية) في الفكر . ولا ضير على العقل ان يتناول أمورا تناولها غيره فيضيف اليها جديدا ، ولا يدعو ذلك اطلاقا الى استرقاق وعبودية للمتقدم

---

(٣) تراجع مقدمة ابن سينا لقسم « السماع الطبيعي » من مخطوطة الشفاء في مكتبة بودليانا بجامعة اكسفورد : Poc. 125, fol. 1b.

اما لفظة « المشائين » فتعني المدرسة الارسطية على العموم ابتداء من المعلم الاول حتى أواخر الشراح .

انظر مثلا :

D. Runes, Dictionary of Philosophy, New York, 1942, p. 22.

(٤) اعتمدنا بالنسبة الى النص الارسطوطالي على الطبعة الانكليزية التي اشرف عليها الاستاذ W. D. Ross وهي عبارة عن ترجمة للنص الاغريقي الذي قام بتحقيقه Bekker في برلين عام ١٨٣١ ـ ١٨٧٠ .

(٥) يراجع ابن النديم : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

على المتأخر ما دام الفكر وابداعه ملك الانسانية وحدها • وعن هذا السبيل نعتقد ان لابن سينا اصالته الخاصّة في الفكر الانساني ، ومدرسته المحددة في الابداع الفلسفي • ولا ضير ان نجد خلال البحث تجاوبا فكريا بين المعلم الاول والشيخ الرئيس ، فالتجاوب الفكري أمر ضروري لفترة الارهاص الحضاري الذي عاش خلاله فيلسوفنا الكبير ابن سينا •

★ ★ ★

تتضمن مباحث ابن سينا في « السماع الطبيعي » ـ بادىء ذي بدء ـ البحث عن الاسباب والعلل(٦) • وسنقتصر الكلام هنا على نظريته في « المبادىء العامة » Common Principles التي تبدأ ضرورة بمفهوم هذا العلم ـ أعني الطبيعي ـ الذي يتحدد ارتباطه بالاجسام من حيث لها الحركة ، ويقصد بالاجسام هنا الاجسام الممتدة فعلا خلا الجسم الرياضي منها • ولنا ان نتساءل هل ان الحركة ـ بمدلولها العام ـ كافية لقيام هذا العلم ؟ الواقع اننا يجب ان نحدد مدلول الحركة من ناحية جنسها ؟ فالحركة الصناعية لا تدخل في مضمون هذه المعرفة ، وانما يقتصر هذا العلم على الاجسام التي تتحرك حركة ذاتية دون قسرٍ أو صناعة • وما زال اقتصارها على هذه الاجسام فالعلم الطبيعي علم جزئي بالنسبة الى العلوم الفلسفية الاخرى •

ولكن ما هو الموقف الذي يحدده ابن سينا لدارس هذا العلم ؟ يؤكد الشيخ الرئيس ان وجه التعليم والتعلم(٧) في هذا الحقل يبدأ « بالمبادىء

---

(٦) « الاسباب والعلل » لفظتان استعملتا في الفلسفة استعمالا اصطلاحيا يرتبط بوجهٍ ما بالاصل اللغوي الاول ، ولكنني اميل الى اعتبار (الاسباب) ـ من الناحية الفلسفية ـ علّة خارجية ؛ و (العلل) علّة داخلية • ومما يلاحظ ان اوائل المترجمين العرب ـ ومنهم اسحق بن حنين ـ كانوا يحاولون تجنب استعمال لفظة (العلة) قدر الامكان والاستعاضة عنها بلفظة (السبب) ، ولكن ابن سينا يستعملها في كثير من الاحيان مترادفة لمعنى واحد تصعب التفرقة فيه •

(٧) يذهب الشيخ الرئيس الى ان التعلّم والتعليم يمثلان في أساسهما جهة واحدة تتم احداهما الاخرى ؛ كما لو يحرك انسان ـ مثلا ـ الحجر بالفعل ، أو له القدرة على تحريكه بالقوة •

قارن ارسطو : Phys. 202b 10-20

ورسائل اخوان الصفاء ، القاهرة ، سنة ١٩٢٨ ، ١٩٨/١

العامة » ، أي يجب ان نبدأ مما هو أعم ونخلص الى ما هو أخص • أي اننا يجب ان نبدأ بدائرة الجنس ، ومن ثمة دائرة النوع ، لان تعرف الجنس اقدم من تعرف النوع • أو بالاحرى ان المعرفة بالحد وتصوره تكون قبل معرفة المحدود[٨] ان عنينا بالحد ما يحقق ماهية المحدود • لذا يتحتم علينا أولا ان نتفهم « المبادىء العامة » كي نتعرف على الامور الخاصة[٩] ، لان المبادىء العامة أسهل تناولا ـ عن طريق العقل ـ مما هي عليه في الطبيعة ؛ حيث ان الطبيعة تهدف أولا الى ايجاد النوع لا الفرد • ولم يقم النظام الكوني الا لتحقيق هذه الفكرة • فغرض الطبيعة أولا وقبل كل شيء ان توجد انسانا ما وليس غرضها ايجاد شخص الانسان المتمثل بزيد وعمرو مثلا ، لان جميعهم صائرون الى فناء ، وعلى العكس فان صيرورة الطبيعة تستمر في تحقيق النوع بصورة دائمة •

فالاعرف اذن عند الطبيعة ـ على رأي الشيخ الرئيس ـ هو الجنس والنوع ، وقدمهما ليس بالطبع ولكن قدم بالزمان[١٠] • والفكرة بحد ذاتها لا تنهض على اسس سليمة لانها تفتقر الى أدلة أكثر مما يحاول ابن سينا تقديمه عن عقلانية الطبيعة وقصدها الغائي •

ولكن عند توفر المقايسة بين الامور العامة Common things والخاصة particulars من جانب ، وبين العقل من جانب آخر ، يظهر لنا ان الامور العامة أعرف عند العقل • واذا قايسنا بينهما معا وبين الغائية في الطبيعة ظهر لدينا ان الامور النوعية اعرف عند الطبيعة • اما اذا اجرينا المقايسة بين الامور النوعية specific ones من جانب ، وبين الافراد المعنية particular individual ونسبنا كلاهما الى العقل لم نجد للاخيرة مكان تقدم أو تأخر عند العقل على غيرها الا بان نستشرك القوة الباطنية للاحساس

---

(٨) قارن ارسطو : Met. 1023b 17 ' Cat. 15a 4.

(٩) قارن ارسطو : Phys. 184b 24

(١٠) قارن ارسطو : Cat. 14a 25 و Phys. 260b 12-20

في ذات العملية ، فيبدو عند ذاك ان الجزئيات اعرف عندنا من الكليات • وهذا موقف حدده ابن سينا من المشكلة القائمة ، سبق للمعلم الاول ان اوقف عليه صفحات طوال في بحثه الميتافيزيقي عن الكلي والجزئي •

فغرض الطبيعة اذن هو تحقيق هذا « النوع » ، فاذا توفر حصوله في شيء معين غير خاضع للكون والفساد ، لم يكن ذلك النوع بحاجةٍ الى أفراد تمثله في العالم الخارجي • ويضرب ابن سينا مثلا لذلك بالشمس والقمر ووحدانيتهما ، ظنا منه ان هذه الوحدانية ثابتة أصلا[١١] !

اما كيف يتم تصور هذه الحال بالنسبة للحس والتخيل ، فان للجسم عند الشيخ الرئيس معنيان : معنى عام مطلق ، ومعنى خاص يتحدد بشخص الجسم ذاته • ويتساوق هذا التقسيم أيضا مع الحيوان والانسان بمدلولهما العام والخاص على السواء فاذا نسبنا هذه المراتب الثلاث (أعني : جسم ـ حيوان ـ انسان) الى القوة المدركة مع مراعاة نوعين من الترتيب بحيث نبدأ بالامور العامة ونتدرج الى الخاصة منها نجد : ان الامور العامة اعرف عند الحس من الامور الخاصة ؛ لان الادراك الحسي يرجع صورة الحيوان الى « ما صدق » أوسع منها وهو الجسم • ولكننا اذا ارجعنا ذلك الى التخيل فان للانسان القدرة على تصور شخص من « النوع » غير محدود بخاصية معينة تلزمه • ولعل خير مثل يضرب في هذا السبيل هو تصورات الطفل الصغير حيث انه في بواكير أيامه الاولى لا يمتلك القدرة على تمييز أباه من بين الرجال الآخرين ، ولا تمييز أمه من بين مجموعة من النساء[١٢] ؛ بل ان له القدرة فقط على تمييز صورة النوع للطرفين دون تحديدهما بالنسبة اليه • هذا الخيال الذي يرتسم في الذهن لصورة الانسان المطلقة غير المخصصة هو المعنى العام الذي يصطلح عليه ابن سينا عبارة « الشخص

---

(١١) قارن ارسطو : Met. 1074a 31

(١٢) قارن ارسطو : Phys. 184b 12

المنتشر »[١٣] Indeterminate individual الدالة على كل « شخص » عام[١٤] غير معين • ويتحدد المصطلح السابق بمعنيين اولهما ان « الشخص المنتشر » يقصد به حد الفرد مضافا اليه طبيعته النوعية كقولنا « حيوان ناطق مائت » حيث يؤدي استعمال هذه الكلمات الى معنيين : الاول اطلاقها على الفرد المتعين المحدد ، والثاني اطلاقها على تعريف الانسان العام • ففي هذه الحال يرتبط الادراك برؤية انسان غير متشخص بصفاته الذاتية بل انسان على الاطلاق ، وفي كلا المعنيين تداخل واضح عند الشيخ الرئيس • وثانيهما هذا الفرد المتعين حقيقة وموضوعا ، ولكن يصلح عند الذهن ان يضاف اليه معنى الحيوانية أو الجمادية لشك يعتور الادراك فيؤدي الى اعتقاد ظاهري في التعميم لا يرتبط بحقيقة الشيء ذاته ؛ كرؤية جسم مبهم من بعيد يصعب علينا ارجاعه الى صفة معينة ، فحينئذ نطلق عليه مصطلح « المنتشر » باشتراك الاسم معا •

ولنا ان نتسائل هل ان هناك فارقا قطعيا بين لفظة « شخص » الدالة على النوع ، وذات اللفظة الدالة على اسم معين ؟ يبدو ان الامر لا يحتمل المبالغة التي أرادها له ابن سينا بل ان الكلمات الكلية مثل (انسان) جديرة منا بالمناقشة لنرى ان كان هنالك ما يصح ان يسمى بالكلمات الكلية اطلاقا •

---

(١٣) ان المصطلح الذي يستعمله ابن سينا هنا له دلالة اغريقية قديمة • واللغة اليونانية في الواقع ترادف بين هذا المصطلح « منتشر » indistinguished وبين لفظة (غير محدود) undetermined ، ويستعملها المعلم الاول استعمالا مشابها •

اما الحد الذي يذكره لهذا المصطلح السيد الشريف الجرجاني في تعريفاته (ط• القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٢٠٩) فيبدو انه يرجع لمصطلح قديم يميل نحو المدرسة الرواقية وخاصة فيلسوفها كروسيبوس Chrysippus .

(١٤) يذهب ابن سينا الى تحديد دقيق للفظة (شخص) من حيث دلالتها المطلقة حيث ترتبط هنا بمعنى واحد عام • فاذا قلنا لزيد انه (شخص) لم نرد بذلك انه زيد – مثلا – بل أردنا انه بحيث لا يصح ايقاع الشركة في مفهومه ، وهذا المعنى يشاركه فيه غيره • فالشخصية اذن من الاحوال التي تعرض للطبائع الموضوعة للجنس والنوع • والفرق بين الانسان الذي هو النوع وبين شخص الانسان الذي يعم لا بالاسم فقط بل بالقول أيضا • راجع : المدخل الى منطق الشفاء ، القاهرة ، ١٩٥٢ ص ١٧ •

فان كان الامر كذلك فبأي معنى نقول عن الكلمة انها كلمة كلية ؟ نعم ان هذه مسألة ميتافيزيقية الا انه لا مندوحة لنا في هذا الموضع عن القول بان الاستعمال الصحيح للكلمات الكلية ليس في ذاته دليلا على ان الانسان في مقدوره ان يجعل المعنى الكلي موضوعا لتفكيره • فقد كان المفروض دائما اننا ما دمنا نستطيع ان نستعمل لفظا كليا مثل (انسان) استعمالا صحيحا في لغة التفاهم ، اذن لابد ان تكون في أذهاننا فكرة مجردة عن الانسان لتقابل هذه الكلمة الكلية وتصبح معنى لها ، لكن ذلك رأي خاطيء وحقيقة الامر هي اننا نستجيب بصورة معينة لفرد معين من الناس ثم نستجيب بصورة أخرى معينة لفرد آخر من الناس • لكن بين أفراد الناس جميعا عنصرا مشتركا يجعل في استجاباتنا لمختلف الافراد عنصرا مشتركا كذلك ؛ فان اثارت الكلمة الكلية (انسان) الاستجابة المشتركة وحدها كان ذلك بمثابة فهمنا لكلمة انسان الكلية • واذن فالاستعمال الصحيح للكلمة الكلية لا يقتضي بالضرورة ان يكون لدينا تصور مجرد يقابلها[١٥] •

ثم يتحدث ابن سينا عن « القبلية » priority و « البَعْدية » posteriority بالنسبة للعلل والمعلولات والبسائط والمركبات من حيث نسبتهما « الاولوية » الى الحس والعقل والطبيعة • فان كانت العلل محسوسة فلا كثير تقدم وتأخر لاحدهما على الآخر من ناحية الحس • اما اذا كانت غير محسوسة فلا نسبة لها الى الحس مطلقا وكذلك حكم الخيال •• اما بالنسبة الى العقل فمسلكه يتأدى على سبيلين : احدهما ان ينتهج طريقه من العلة الى المعلول وهذا سبيل « البرهان اللمي » وثانيهما ان ينتهج طريقه من المعلول الى العلة وهذا سبيل « البرهان الأني »[١٦] وكلاهما يعتمدان على الدليل العقلي من جهة ، وطريق الحس من جهة أخرى • فاذا كانت

---

(١٥) راجع :
B. Russell. An Outline of Philosophy, London, 1927, p. 57

(١٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة تحت لفظة (دليل) ، ١٠١/١١ •

« العلة » تعني الغاية في هذا الباب فهي أعرف عند الطبيعة من المعلول وكذلك العكس •

اما مشكلة البسائط والمركبات فان المركب اعرف عند الحس ، والبسيط اعرف عند العقل ؛ لاننا لا ندرك المركب قبل ان ندرك مسبقا بسائطه أو عرضا من اعراضه ؛ كأن ندرك جسما مستديرا ـ مثلا ـ لم نتبين بعد ماهيته وجوهره • ومن هنا ننتهي الى ان نظرية الشيخ الرئيس تتحدد بان الاعرف عند العقل من الامور العامة هي « المبادىء العامة » والبسيطة ، واما عند الطبيعة فالاعرف لديها هي الخاصة النوعية والمركبات • فالتعليم ـ اذن ـ يجب ان يبدأ من « المبادىء العامة » وبسائطها ويرتفع الى النوعيات وخصائصها • فالنوع من الناحية « الوجودية » Ontologically اسبق من الجنس في تطبيقات هذه النظرية •

ومن خلال هذا العرض الموجز « للمبادىء العامة » يمكننا ان نلمس رأي ابن سينا صريحا في الطبيعة حيث يحاول ان يمنحها مدلول التعقل الكامل الهادف لغاية ومعرفة واستدلال ، وكأنها تقف كالمارد أمام قوى الانسان تنازعه المعرفة فتسبقه تارة ويسبقها أخرى • وليس بالغريب هذا فهو موقف تمثله الفلاسفة اليونانيون من قبل ومفكرو العصور الوسطى سواء بسواء[١٧] •

جعفر آل ياسين

الرموز المستعملة :

Met. = Metaphysics.
Phys. = Physics.
Cat. = Category.

---

(١٧) قارن :
E. Zeller, Outline of the History of Greek philosophy, London, 1955, p. 179.